مركز الأهرام للتنظيم وتكنولوجيا المعلومات

المصدر: الاهـــرام العـربـى
التاريخ : ٢٠٠٣/١٠/١١

زيارة جديدة لـ «السادات»

احتل أنور السادات خشبة المسرح السياسى فى مصر أحد عشر عاماً، كان فيها صانع الصدمات والمفاجآت. وقبل أن يجلس على نفس الكرسى الذى تبوأه عبدالناصر، صاحب الكاريزما، لم يتوقع أحد أن يصبح هذا الرجل، القادم من الظل. إلى حد ما. مثيراً للجدل والعواصف، ليس فى عموم الشرق الأوسط وحده، إنما بطول وعرض الساحة الدولية.

مهدى مصطفى

عندما جاء ريتشارد سون إيليون، مندوباً عن الرئيس الأمريكى الأسبق ريتشارد نيكسون لحضور جنازة عبدالناصر، رفع تقريراً إلى الإدارة الأمريكية يقول فيه: «إن السادات لن يستطيع البقاء، فى منصبه أكثر من أربعة أو ستة أسابيع» وطالما تكررت نفس الشكوك فى السادات، لكنه خيبها جميعاً، واستطاع أن يشق طريقه فى حكم مصر، ليس بهدوء، إنما بصناعة العاصفة وراء الأخرى.

فى بداية صباه الأول اتخذ الزعيم الهندى الأسطورى مثالاً له، لكنه تخلى عن ذلك بعد قليل، عندما أدرك أن خروج الإنجليز من مصر، لن يتم بالأساليب السلمية كما يتبنى ذلك غاندى فى الهند، وراح ينظر بإعجاب إلى الزعيم التركى الحديدى كمال أتاتورك، وشهدت فترة الحرب العالمية الثانية، صعود أنور السادات الضابط الذى حاول اغتيال مصطفى النحاس، بعد حادث 4 فبراير، عندما جاء الوفد على أسنة الرماح الإنجليزية، ثم اشتراكه فى حادثة أمين عثمان - وزير المالية المصرية عام 1946 - الذى قال بالزواج الكاثوليكى بين مصر وانجلترا، فاحتلت صوره الصفحات الأولى فى الصحف المصرية.

هذا النشاط السياسى المحموم، لم يظهر تقريباً طوال ثمانية عشر عاماً، من يوليو 1952 حتى عام 1970، على الرغم من أنه كان أحد أعضاء مجلس قيادة الثورة، وتسلم مسئوليات مهمة، بدءاً من رئيس تحرير الجمهورية، جريدة الثورة، إلى ترأسه جلسات لمحكمة الثورة، إلى رئاسة مجلس الأمة، ورئاسة بعض الوفود المصرية فى المؤتمرات الخارجية، وكان واحداً من القلائل الذين ظلوا إلى جوار عبدالناصر حتى النهاية، فمعظم رفاق الثورة، كانوا قد اعتزلوا، أو عزلوا لسبب أو آخر. وكانت المفاجأة أن يختاره جمال عبدالناصر، ليكون أحد نواب رئيس الجمهورية، ويعهد إليه تسيير شئون البلاد فى أثناء غيابه فى الاتحاد السوفيتى السابق للعلاج من مرض السكرى البرونزى الخطير.

وعندما مات عبدالناصر فى 28 يوليو 1970 آلت التركة إلى السادات، على الرغم من الصقور الذين كانوا يشكلون الحلقة الضيقة فى الحكم، فقد عصف بهم جميعاً، فى لحظة واحدة فى 15 مايو 1971، بمساعدة محمد حسنين هيكل، الذى سوف يتخلص منه بعد ذلك فى 1974 عندما اختلفت الطرق والأهواء.

لم تكن واقعة مايو أولى العقبات أمام السادات، فقد كان المناخ العام مشحوناً يطالب بالتحرير ورد الكرامة التى أهدرت فى يونيو 1967 وراح السادات يكثر من وعوده بالحسم، وقال: لن أسمح بمرور عام 1971 دون تحديد مصير المعركة «لكن ذلك العام مر دون حسم، الأمر نفسه تكرر عام 1972 ومعظم أشهر 1973، وفى كل مرة كان المناخ العام يضغط عليه ويبدو كأنه نافد الصبر، فلم يحتمل بيان الكتاب والمثقفين، الذى حمل توقيع كبار الكتاب وعلى رأسهم توفيق الحكيم ونجيب محفوظ،

وذلك البيان الذى طالبه بتحديد موقفه من « الحرب أو السلم ». وكان من نتيجته غضبة أودت بالكثير من أعمالهم. ولم تكن تلك المفاجأة الوحيدة التى شغلت الرأى العام المصرى، والدولى الذى كان مشغولاً فى صراع الشرق الأوسط. بل كان السادات على موعد آخر، لا يقل درامية عن اعتقال رموز عبدالناصر فى مايو، ولا عن تشريد الكتاب والصحفيين. هذا الموعد فجر مفاجأة طرد الخبراء الروس، وهم الحلفاء الوحيدون، فى وقت كانت فيه معركة الحسم على الأبواب.

وقد كشفت كل مذكرات السياسيين فى تلك الفترة عن أن السادات لم يعلم أحداً بخطوة طرد الروس من مصر الذين كان قد وقع معهم معاهدة صداقة. فأخذت المفاجأة الجميع، بمن فيهم الأمريكيون، ويعترف هنرى كيسنجر فى مذكراته بأن هذه الخطوة كانت إحدى مفاجآت السادات التى لم نكن نتوقعها ولم نفهم دوافعها، أما جولدا مائير - رئيسة وزراء إسرائيل السابقة - فقد ارتبكت من هذه الخطوة، وقالت إن وراءها خطراً على إسرائيل لكنها تداركت الأمر كله بعد ذلك، حسبما كشفت فى سيرتها الذاتية.

إن السادات استطاع، كما يقول محمد حسنين هيكل خصمه السياسى، أن ينحت لنفسه شرعية، هى شرعية أكتوبر، مثلما كان عبدالناصر يستمد شرعيته من ثورة يوليو. فالوصول إلى هذه الشرعية، المشكوك فيها فى بداية الأمر، مر عبر مناورات ودهاء ومكر. كما كشف الساسة والكتاب الذى عاصروا أو اقتربوا من السادات.

فى البداية حاول التسوية دون حرب، كما يكشف هيكل، فى كتابه « المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل »، لكن أحداً لم يمكنه من ذلك، أو بالأحرى، لم يصدق من قبل الإسرائيليين أو الأمريكيين، أو حتى من الساسة والمثقفين المصريين، والأخيرون طالبوه بالحسم، سلماً أو حرباً، وإذا اختار السلم فسوف يساعدونه. أما على المسرح الدولى فحاول عن طريق شاوشيسكو فى عام 1972، وقبل ذلك حاول الاستفادة من مبادرة وليام روجرز، وفى كل الأحوال أراد أن يستفيد من التركة القليلة فى هذا الجانب، التى قام بها بعض اليسار المصرى عن طريق باريس، أو تلك التى قام بها الشيوعيون الإيطاليون قبل رحيل ناصر.

الفشل فى السير فى هذا الطريق جعله يقرر الحرب، عندما أوحى له هنرى كيسنجر بأنه فى الجانب المهزوم، وعليه أن يقدم تنازلات، فى تلك اللحظة كان قراره بالحرب، هذا القرار الذى يصفه محمد حسنين هيكل بالجرىء، جعل كيسنجر يسارع بالاتصال بالسيد حافظ إسماعيل - مستشار السادات للأمن القومى - وهو المتعالى على الاتصال بالقيادة المصرية فى ذلك الوقت، عندما كانت القوات المصرية تدك حصون خط بارليف، وتزلزل قلب إسرائيل، حسبما كشفت الوثائق الإسرائيلية بعد ثلاثين عاماً، وكتاب كيسنجر الأخير عن حربى أكتوبر وفيتنام.

ومرة أخرى، يعترف المراقبون بأن السادات خدع الجميع، فمن مذكراته يقول فينوجرادوف: «إن السادات لم يخطرنا بموعد الحرب، حتى فى الوقت الذى كنت فيه معه صباح السبت 6 أكتوبر، لكنه اتصل بى بعد الظهر قائلاً: إن قواتنا عبرت القناة إلى الضفة الشرقية»، أما الولايات المتحدة وإسرائيل فلم تعرفا بالحرب إلا ساعة وقوعها بالفعل.

ويقول هيكل إن السادات قال له: إنها آخر الحروب، وأن التسوية قادمة، فاختلف الرجلان، لكن صاحب بصراحة، لم يتصور أن يذهب السادات أبعد من ذلك، بعد سنوات قليلة، عندما حطت طائرته مساء 17 نوفمبر 1977 فى إسرائيل، ليفاجىء الجميع، بمن فيهم الإسرائيليون والأمريكيون، الذين لم يصدقوا إشاراته فى خطابه الشهير فى مجلس الشعب فى حضور ياسر عرفات، الذى فوجىء ككل الحاضرين، وصفق معهم بالعدوى، عندما قال السادات: «إنه مستعد أن يذهب إلى الإسرائيليين فى عقر دارهم من أجل استعادة الأرض العربية».

حتى إن هيرمان إيلتس - السفير الأمريكى فى القاهرة - لم يصدق هذه الكلمات إلا عندما أكدها له السادات عبر أحد مستشاريه السياسيين، تلك المفاجأة المدوية بعد 22 عاماً من غياب السادات لا تزال تدهش كثيرين، ويتساءلون ما الذى دار فى ذهن الرجل فى تلك اللحظة؟

لا أحد حتى الآن، قادراً على الإجابة الدقيقة عن هذا السؤال، غير أن مرور هذه الأعوام على غياب السادات فى حاث المنصة الشهير، وهو يحتفل بنصر أكتوبر 1973، لم يجعل صدماته ومفاجآته مجرد ذكرى، فيوماً بعد آخر نكتشف أن فى جراب الرجل كثيراً منها، فمنذ عامين فاجأ محمد حسنين هيكل فى ندوة فى الإسكندرية جمهوره، قائلاً يبدو إنه لم يكن أمام السادات غير الطريق الذى سار فيه، أما الجماعة الإسلامية التى أقدمت على اغتياله ظهيرة السادس من أكتوبر 1981 فقد أفتت بأنه شهيد فتنة، فى مفاجأة تكشف عن أن الرجل لايزال قادراً على الدهشة، فى زيارتنا الجديدة، له بعد 22 عاماً من غيابه ■

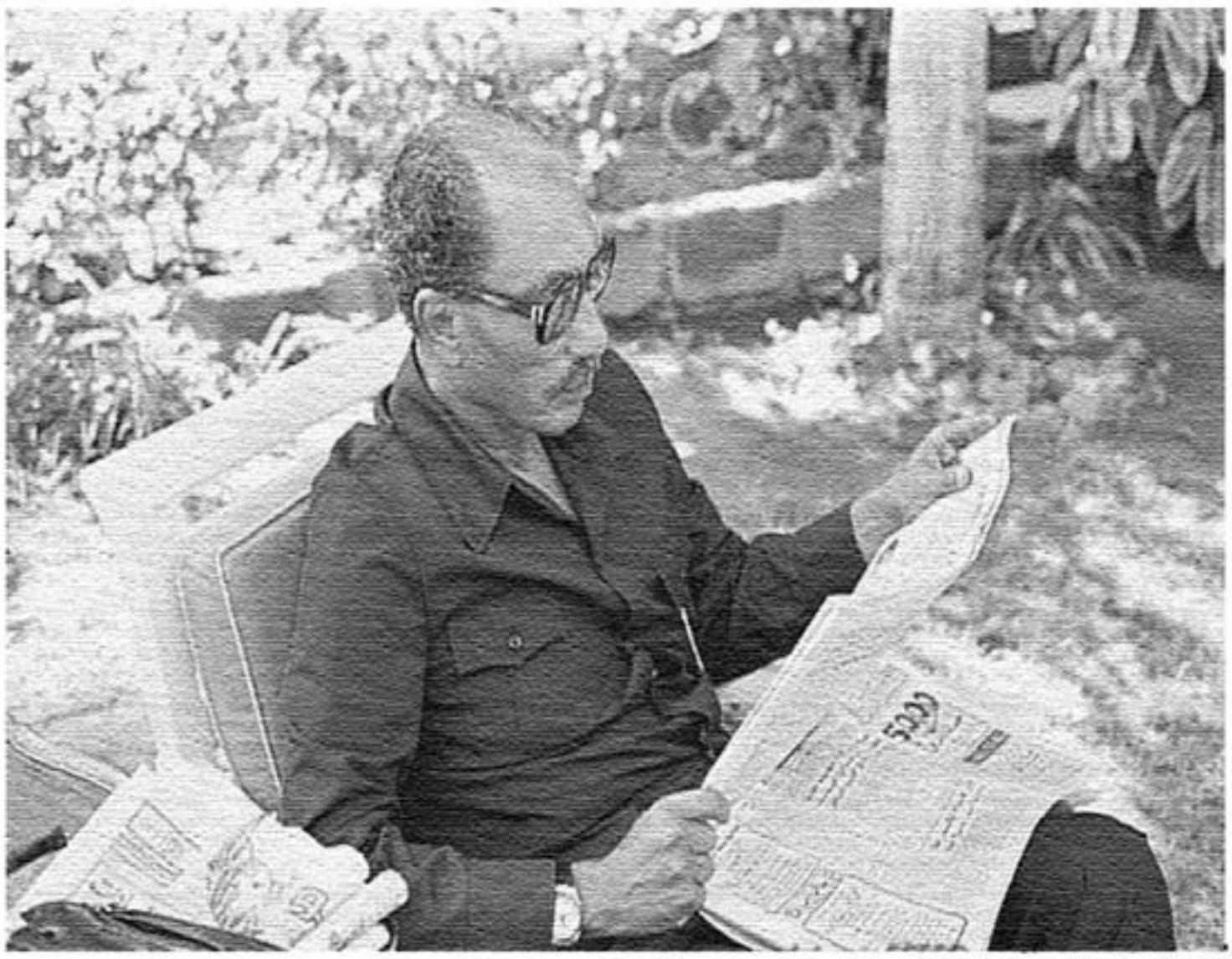

السادات يطالع الاحداث من صحيفة « الاهرام القاهرية »